الجمعيات التعاونية

تاريخ نشأتها وتطورها مع الزمن

غريزة التعاون قديمة تأصلت فى الانسان منذ عصوره الأولى، وقد دلت الأبحاث التاريخية على أنه أحس الرغبة فى التعاون منذ أن درج على وجه الأرض، دفعته الى ذلك رغبته فى إيجاد من يساعده على إعداد ما كله ومسكنه ثم الدفاع عن نفسه ، فلما تقدم به الزمن ، وبدأ يخطو نحو الحضارة شيئا فشيئا ، أخذت الدوافع تكثر شيئا فشيئا تبعا لازدياد حاجاته ومطالبه .

ومما يدل على قدم هذه الغريزة وتأصلها فى الإنسان ما عرف عن قيام الشركات التعاونية عند قدماء المصريين والكلدانيين وأهل بابل وأشور ، وهى أمم يرجع تاريخها الى آلاف السنين . وقد جاء ذكر الجمعيات التعاونية فى قول الملك " رمسيس الثالث " الذى عثر عليه الأستاذ " ريفليو " فى أوراق البردى وترجمه الى العربية الدكتور يحيى أحمد الدردير ى . قال الملك :

" كنت أعول الضعفاء والمساكين بوساطة حوانيت أى شركات التعاون ، وجعلت الرخاء يعم الناس جميعا . وكان الرخاء الى هذا الحين منهوك الحال. وكانت الأرض (فى عهدى) ملأى بالخيرات من المزروعات وغيرها. تحت حكمى عملت الخير ابتغاء وجه الله ومصلحة الأمة لا أريد على ذلك من أحد جزاء ولا شكورا ، وعلى هذا السبيل قضيت حكمى " . .

وكان معنى التعاون الذى قامت به تلك الشركات — كما يتضح لنا من الفقرات السابقة — تقديم المساعدة اللازمة للمحتاجين، والإحسان للضعفاء . يقول الدكتور الدردير ى فى كتابه التعاون "فاذا تتبعنا ما عثر عليه وترجم من أوراق البردى وجدنا معنى التعاون فى كثير من أقوال الأفراد والزعماء، التعاون الذى أساسه بذل المعونة والاحسان للضعفاء، وحمايتهم من الأقوياء لتوطيد دعائم النظام والعدل من جهة، وتبادل المعونة والفائدة من سبيل اشتراك مجهودات العمال أنفسهم من جهة أخرى " . . غير أن هذا المعنى يختلف تماما عن معنى التعاون الحديث الذى تقوم به الجمعيات التعاونية المنتشرة فى كل قطر ، فذاك يذهب الى الإحسان والعطف ، وهذا يذهب الى وجوب اعتماد الفرد على نفسه فى محاولة إسعاد حاله .

ولكن مالنا نذهب بعيدا ، ونحاول التدليل على قدم غريزة التعاون وتأصلها فى الإنسان بما جاء فى أوراق البردى ، وبما عثر عليه علماء الاثار هنا وهناك وهذه الأديان السماوية بين أيدينا تجمع على أن التعاون فضيلة بل وسيلة الى سعادة البشر وتقدم الانسانية . لقد كان الإنسان يحس حاجته الى التعاون من تلقاء نفسه فيسعى اليه دون أن يفكر فيه ، ولم يكن خياله اذ ذاك يتسع لأكثر من الحصول على حاجاته الوقتية ، ولم يكن تفكيره يتسع لاكثر من البيئة الضيقة التى تحيط به ، فلما جاءت الأديان لخدمة الانسانية عامة ولتهذيب نفوس الافراد ورفع مستواهم ، وتحسين أحوالهم ، وإقامة صرح الحياة على أسس قوية وضح للإنسان أن الغريزة التى تدفعه الى الالتجاء الى غيره على قرب منه أو بعد عنه وتدفعه الى طلب العون كلما أزمته أزمة أو نقلت عليه كارثة ، أو رغب فى تنفيذ أمر من الأمور التى لا يمكنه القيام بها وحده — بينت له الأديان أن هذه الغريزة انما هى غريزة التعاون ، وأنها وسيلة الى ما يرجوه من خير ثم دعت الناس الى أن يتعاونوا لتخفيف أعبائهم ، وليكونوا أمة صالحة .

قال تعالى فى كتابه العزيز : " وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان " وليس قوله تعالى " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين " إلا دعوة منه جلت قدرته للتمسك بأهداب الوحدة ، وترغيبا فى التعاون حتى لا يصيب الفشل عباده ، وأثر عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله " الله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه " وقوله " خير الناس أنفعهم للناس "

ولم يكن التعاون قديما فى هذا المظهر الذى نراه عليه اليوم ، فقد كان الإنسان يلجأ اليه من أقرب الطرق وبأبسط الوسائل ، ولا يمكن أن تخرج الحالات التى كان الناس يتعاونون فيها عن حالات التعاون فى هذا الوقت ، فأما هذه الحالات فهى :

(١) تعاون الفرد مع الفرد

(٢) تعاون الفرد مع الجماعة

(٣) تعاون الجماعة مع الجماعة

غير أنه لم تكن هناك خطط تبين حدود هذا التعاون وأغراضه ونواحيه ، لأنه كان تعاونا غير مقصود ، بمعنى أن الناس جميعا كانوا يتعاونون من حيث لا يشعرون ، أو من غير أن يتعمدوا ذلك ، ولا يزال هذا التعاون موجودا حتى الآن ، بل لا يمكن ان تستغنى عنه البشرية مهما يكن الأمر . ولنضرب لذلك مثلا بسيطا برغيف الخبز ، فكم من الأيدى ساعدت على انجازه اذا تصورنا أنه كان زرعا ثم حبا ثم دقيقا ثم عجينة وقس على ذلك كل شىء فى متناول يد الانسان .

ولما كانت لهذا التعاون غير المقصود عيوب لاتزال تعرض العالم لكثير من ويلاتها، وتعرض الحياة الاقتصادية لكثير من المفاجآت فقد فكر رجال الاصلاح فى ايجاد نظام آخر من التعاون المنظم الذى لايقوم على استغلال فئة لفئة ، ويكون كفيلا بسد النقص وإصلاح العيوب .

واذا كان ذكر الشركات التعاونية قد جاء فى المخلفات القديمة فإن هذه المخلفات لم تذكر لنا شيئا عن خططها وأغراضها ، ولذلك لانستطيع أن نعطى فى هذا المقام بيانا واضحا أو نتحدث بشىء عنها وعن أعمالها .

اما تاريخ الجمعيات الحديثة أو بمعنى آخر الجمعيات التعاونية المنظمة المحددة أعمالها بقوانين وأنظمة فيرجع الى القرن السابع، وهو الوقت الذى بدأت فيه " الجمعيات الاختيارية " (Voluntary Associations) وقد ظهرت هذه الجمعيات فى انجلترا لأول مرة ، وكان الشعب الانجليزى أول الشعوب التى استفادت من وجودها أدبيا وماديا، وفى ذلك يقول "روبنسن" صاحب كتاب روح المشاركة (The Spirit of Association) "لانبالغ اذا نحن عزونا الفضل الأكبر فى سعادة الأمة الى ما قامت به الجمعيات الاختيارية التى انتشرت فى انجلترا منذ عهد الانجليز السكسونيين "

وبدأت هذه الجمعيات خدماتها فى شكل طوائف (Guilds) وقد انحصرت هذه الخدمات فى تقديم المساعدة لكل من هو فى حاجة اليها ، وفى تبادل المعونة بين الناس بما يعود عليهم بالخير والسعادة ، ولا شك فى أن الشعب الانجليزى قد استفاد خلال القرون الوسطى فائدة كبيرة من قيام الجمعيات الاختيارية بتنظيم وسائل الحياة وتسهيل سبل العيش. ولا شك فى أنه إلى هذه الجمعيات يرجع كثير من من الفضل فى اكتساب الانجليز تلك الاخلاق القوية التى طبعتهم بطابع خاص وميزتهم عن كثير من الشعوب .

يقول الدكتور ابراهيم بك رشاد " وعندى انهم، أى الانجليز تسيطروا على هذا العالم بقوة أخلاقهم أكثر من سيطرتهم بقوة عقولهم. واذا كانت هناك قوة واحدة تكونت بفضلها هذه الاخلاق الانجليزية فهى قوة الاشتراك الاختيارى التى بعثت منذ أمد بعيد فى قلوب الشعب روح التعاون لإعلاء شأنه بنفسه بعزيمة تزيل العقبات وتسهل الصعاب من غير أن تتدخل سلطة ما فى شئونه " .

ولم يكن طريق الجمعيات الاختيارية وما تبعها من طوائف معبدا سهلا فى المرحلة الأولى من تاريخ حياتها، ولكنه كان عرضة لكثير من التطورات المختلفة ، فقد مضت تلك الجمعيات والطوائف تشق طريقها بين القوة مرة ، والضعف والخمول مرة اخرى ، متأثرة

فى ذلك بما كان ينتاب الشعب نفسه من دوافع القوة والضعف . فلما كان منتصف القرن الثامن عشر أحست شعوب العالم الرغبة فى تقوية العزائم وشحذ الهمم ، وفكر الشعب الانجليزى فى البحث عن وسائل اخرى تساعده على تخفيف اعبائه ، وتمهد له السبيل الى حياة أرغد حالا من حياته الماضية . وكانت الجمعيات التعاونية (Co-operative Societies) إحدى هذه الوسائل التى لجأ اليها الشعب وخاصة بعد الانقلاب الصناعى والزراعى (The Industrial and Agrarian Revolution) ، فقد كان هذا الانقلاب التيار الجارف الذى غمر نوره أوربا كلها فى ذلك الوقت فبدل حالها وقلب اوضاعها وغير انظمتها ، وساعد على انتشار الافكار الحديثة والقضاء على الفوارق بين الطبقات .

وقد حدث بعد هذا الانقلاب الصناعى الزراعى الذى بدأ فى انجلترا " بلانكشير " أن أصيبت دول العالم ومنها انجلترا بأزمات اقتصادية شديدة زعزعت أركانه ، وهددت الأيدى العاملة بالشدة والعسر ، ولوحت لهم بشبح الجوع والفقر . وكانت هذه الأزمة الطاحنة نتيجة استخدام الآلات وادارتها بالبخار ، والاستعانة برءوس الأموال الكبيرة فى الصناعة والمواصلات . وأدت هذه الحركة على الرغم من توافر سبل العيش وازدياد موارد الثروة إلى نتائج وخيمة أهمها :

(١) الاستغناء عن كثير من الأيدى العاملة ، وقد هام أولئك الذين استغنى عنهم فى الشوارع جائعين يبحثون عن القوت فلا يجدونه .

(٢) تشغيل النساء والأطفال الحديث السن ، وقد أفضى ذلك إلى نتائج صحية وخلقية سيئة .

(٣) تخفيض أجور العمال إلى حد لم يكن يكفى للحصول على القوت الضرورى .

(٤) تحكم أصحاب العمل ، مما أدى بهم الى املاء شروط فيها الغنم لهم والغرم على العمال الذين كانوا يعاملون فوق ذلك بالقسوه والشدة .

وكان ما أحسه العمال والأجراء من هذه المحنة وهذا الضيق سببا دفعهم إلى التفكير فى مستقبلهم ، وباعثا حث المصلحين على البحث عن علاج لهذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة التى وقع فيها أولئك المساكين .. وكان أول من فكر فى ذلك "روبرت اوين" (Robert Owen)

وكان يملك فى ذلك الوقت مغزلا كبيرا فى إحدى بلاد اسكتلندا اسمها نيولانارك (New Lanark) وقد وصل فى بحثه إلى تقرير أمور كثيرة منها :

(١) تقليل ساعات العمل .

(٢) منع تشغيل حديثى السن من إناث وذكور .

(٣) تعليم أطفال عماله مبادئ القراءة والكتابة والرياضة البدنية فى مكاتب ليلية فتحها خصيصا لهم .

(٤) إنشاء مساكن صحية .

(٥) توزيع الأطعمة الصحية على العمال بسعر الجملة معرضا عن الربح الذى يتناوله الوسيط (التاجر) .

كان " أوين " يرجو الخير للناس جميعا . يقول الدكتور ابراهيم بك رشاد : (ولم يقتصر " أوين " فى مجهوداته على من حوله بل فكر فى وضع نظام عام يعود بالخير على المجتمع الانسانى ، ورأى أن البيئة التى يعيش فيها الانسان من أهم المؤثرات فى تكوين مواهبه ، فإذا عمل المصلحون وأرباب الأموال والحكومة على تحسينها ومنع ذلك الضرب من التنافس الذى يخس الناس أشياءهم ، و إحلال حسن المعونة والمساعدة مكانه ، عاش الجميع عيشة هنيئة) .

" وللوصول الى تحقيق هـذا النظام أخذ هذا المفكر العمرانى والرجل العملى يعمل على إنشاء « جاليات » (Communities) زراعية صناعية تكون مصادر الثروة فيها من مزارع ومصانع وغيرها ملكا شائعا بين أفرادها ، وهذه الجالية تقوم بجميع حاجات أفرادها فتكفيهم جميع أمورهم المعاشية والتهذيبية " .

غير أن هذه الحركة لم تنل التقدير الواجب وانتهت بالفشل على أثر مهاجمة رجال الدين لها ، كما أن جميع الحركات التى قامت حتى ذلك الوقت وغرضها إصلاح حالة الطبقات الفقيرة قد صادفت كثيرا من الفشل ، وقابلها كثير من الصعاب . غير أن ما اعترض طريقها من محن ، وما أدى الى اضمحلالها ، كانا درسا للمصلحين الذين جاءوا فيما بعد ، وكانا الخطوة أو الخطوات الأولى لتكوين جمعيات تعاونية على أسس وقواعد ثابتة . . وقد ظهر فى فرنسا فى ذلك الوقت أو بعده بقليل الفيلسوف الاشتراكى " شارل فوريه " (Charles Fourier) فكان من أكبر دعاة التعاون فى الاستهلاك (التوريد والتوزيع) . ثم ظهر فى ألمانيا «فردريك ريفيزن» (Frédrick Raiffeisen) و «شلس دلتش » (Schulze Delitzsch) وكانا من أكبر دعاة التعاون للاقتراض والتسليف .

كانت كل هذه الجهود محاولات وتجارب ، ثم كانت جمعية «روتشديل» التى قامت على أكتاف ثمانية وعشرين رائدا ، أولى الجمعيات الاستهلاكية المنظمة وعنها أخذت الجمعيات الأخرى وكانت المبادئ السبعة التى سارت عليها تلك الجمعية دستورا للجمعيات التعاونية فى جميع أنحاء العالم .

يقول الاستاذ عبد اللطيف عامر فى محاضرة ألقاها بمدرسة الخدمة الاجتماعية " كثر تأسيس الجمعيات التعاونية فى هذه الفترة ومنها ما كان يسمى « حوانيت الاتحاد » الا أن هذه المحاولات جميعها لم يتوفر لها النجاح الكافى الى أن كانت التجربة الخالدة فى بلدة روتشديل القريبة من مانشستر ، فكانت هذه الجمعية التعاونية الاستهلاكية الأولى يشار اليها على الدوام كلما ذكر التعاون وجمعياته ، أو استعرض تاريخ الحركة التعاونية ونظامها ، أو أشيد بمبادئ تلك الحركة وأثرها الاقتصادى والاجتماعى . وقد قامت هذه الجمعية فى سنة ١٨٤٤ فكانت الحجر الأول لهذا البناء التعاونى الضخم الذى نشاهده اليوم ونلمس آثاره الطيبة فى سائر انحاء العالم " ..

وتنقسم الجمعيات التعاونية الموجودة فى انحاء العالم الآن الى جمعيات زراعية ومنزلية وصناعية وغيرها ، ولكل منها ظروف خاصة ساعدت على تقدمها ونهوضها ، وادخال تحسينات فى نظامها ، ونرجو أن تتاح لنا الفرصة للحديث عن كل واحدة منها على حدة .